

قراءة في الحركات الإصلاحية الغرب إفريقية خلال القرنين 17 و 18م

A reading of the West African reform movements during the 17th and 18th centuries AD

عبدالله عيسى جامعة الحسن الثاني المغرب

Available online at <https://www.maspolitiques.com/ojs/index.php/ajps/article/view/38>

Summary:

There have been numerous studies related to the history of Islam in West Africa in recent years, and the range of issues and phenomena that these studies have dealt with has varied widely among them in curricula and premises, sources and documents. However, the steady progress in the outcome of this field of knowledge in terms of quantity and quality is no longer an area of controversy. However, the observer - like the writer of these lines - can only show some disadvantages to this scientific movement, including that the absolute abundance of what it produces does not reach the reader in Arabic, Arabic or otherwise. It is assumed that this reader is the first concerned with it, and the people have the best chance of dialogue with it, a dialogue through which its results are enriched, or dealt with by review and amendment.

Key words: studies, West Africa, curricula, dialogue, scientific.

الملخص:

لقد تعددت الدراسات المتعلقة بتاريخ الإسلام في غرب إفريقيا خلال السنوات الأخيرة، واتسع نطاق المسائل والظواهر التي تناولتها هذه الدراسات على اختلاف بينها كبير في المناهج و المنطلقات، والمصادر والمستندات. إلا أنَّ التقدم المطرد في حيلة هذا الحقل المعرفي كماً وكيفاً لم يعد مجال جدال. بيد أنَّ المراقب - مثل كاتب هذه الأسطر - لا يملك إلا أن يُبدي بعض المآخذ على هذه الحركة العلمية، منها أنَّ الكثرة المطلقة مما تنتجه لا يصل إلى القارئ باللغة العربية عربياً كان أو غيره. والمفروض أنَّ هذا القارئ أول المعنيين بها، وأوفر الناس حظاً من مقومات الحوار معها، حوار تثري من خلاله حصيلتها، أو تتناولها بالمراجعة والتعديل.

الكلمات المفتاحية: دراسات، غرب إفريقيا، مناهج، حوار، علمية.

المقدمة:

لقد تعددت الدراسات المتعلقة بتاريخ الإسلام في غرب إفريقيا خلال السنوات الأخيرة، واتسع نطاق المسائل والظواهر التي تناولتها هذه الدراسات على اختلاف بينها كبير في المناهج و المنطلقات، والمصادر والمستندات. إلا أن التقدم المطرد في حيلة هذا الحقل المعرفي كماً وكيفاً لم يعد مجال جدال. بيد أن المراقب - مثل كاتب هذه الأسطر - لا يملك إلا أن يُبدي بعض المآخذ على هذه الحركة العلمية، منها أن الكثرة المطلقة مما تنتجه لا يصل إلى القارئ باللغة العربية عربياً كان أو غيره. والمفروض أن هذا القارئ أول المعنيين بها، وأوفر الناس حظاً من مقومات الحوار معها، حوار تثري من خلاله حصيلتها، أو تتناولها بالمراجعة والتعديل.

ومن مآخذ المراقب على هذه الحركة العلمية أنها غالباً ما تركز اهتمامها على مسائل بعينها: شخصيات أو مدارس أو دولاً، فتظل تبدأ فيها وتُعيد، مغفلة قضايا أخرى قد لا تكون دونها قيمة، وإعانة على فهم مسار التاريخ.

ومن هذه الظواهر - المهمة نسبياً - الحركات الدينية الإصلاحية، التي قامت بمنطقة إفريقيا الغربية خلال القرنين 17 و 18م.

وسنسعى في هذه الدراسة، إلى تبين ما تتيح لنا معلوماتنا المتواضعة من ملامح لهذه الحركات التي كانت ذات أثر حاسم له ما بعده في انتشار الإسلام في هذه المنطقة، بالإضافة إلى معرفة دور هذه الحركات في مقاومة المستعمر الفرنسي.

أولاً - الأوضاع السياسية في غرب إفريقيا عشية القرنين 17 و 18م:

إن الصراع الأوروبي على المراكز التجارية أدى إلى أزمة حقيقية سياسية واجتماعية واقتصادية عرفت في منطقة إفريقيا الغربية منذ القرن 17م، وارتبطت هذه الأزمة بازدياد الطلب على المواد الأولية، وخاصة الذهب والرقيق، بعد أن دخلت هذه المواد فيما يُعرف بالرواج الثلاثي ما بين أوروبا وإفريقيا وأمريكا، بحيث عمقت هذه التجارة الصراع فيما بين ممالك إفريقيا الغربية للحصول على الأسرى من أجل تمويل النخاسة، ومما زاد من حدة العنف السياسي الذي تميزت به هذه الفترة اعتماد التجارة الأوروبية على الرقيق كمادة أساسية في المبادلات، وقد أدى استنزاف المنطقة من خيرة سواعدها خلال القرنين (17 و 18م) إلى إطلاق بعض الباحثين على هذه الفترة اسم عصر النخاسة.^[1]

وما يمكن ملاحظته في ظل الوضعية الجديدة هذه، تضائل أهمية فئة الأحرار التي أصبحت في مرتبة واحدة مع الأسرى، وبذلك أصبحت فئتا النبلاء والعبيد وجهاً لوجه، خاصة عبيد العرش الذين تجاوزوا في بعض الأحيان اختصاصاتهم الموروثة عن النظام القديم، إلى درجة التأثير في الحياة السياسية في البلاد.

ويحدثنا الشيخ أنتا ديوب (ch.A. Diop) عن موقع عبيد العرش في مملكة كايور (Caïor)، حيث يورد بأنهم أصبحوا المتحكمين في مركز القرار السياسي، إلى درجة أنه أصبح بإمكانهم تعيين وإقالة الملوك.^[2]

وقد أدى هذا الانحطاط العام إلى عجز المجتمع عن إفراز طبقة حاكمة، أو تخصيص أي فائض مادي أو معنوي لضمان سير الأجهزة والمؤسسات التي تضي على الحكم حداً أدنى من الشرعية، وبذلك أصبحت الزعامة السياسية والحظوة الاجتماعية من نصيب فئات عسكرية تتشكل من المحاربين المحترفين، فأصبح في مقدور أي مغامر شجاع أن ينتزع السيادة والحظوة الاجتماعية، حتى ولو كان طبقاً للقيم السائدة من أصل وضع^[3].

ومن مظاهر التعبير الثقافي عن عسكرة السلطة، ذبوع شكل من الأدب الشعبي القائم على تمجيد القيم العسكرية، وتخصصت فئة "الشعراء المداحين" (Les griots) في إنتاج وبث هذا اللون من الأدب الشفوي مقابل الحصول على مكافآت من المحاربين، وقد شكلت هذه الفئات المحاربة كيانات سياسية امتازت بعدم الاستقرار، مما ساهم في تفاقم ظاهرة التفكك السياسي الذي عانت منه إفريقيا الغربية طيلة هذه الفترة، والذي كان من نتائجه تصدع النظم السياسية والاجتماعية التي طالما حافظت عليها.^[4] اختلفت السياسات التي اتبعتها هذه الكيانات تجاه الوجود الأوروبي في سواحل إفريقيا الغربية، إذا نرى بأن الكيانات المسلمة كانت تميل إلى السياسة التوحيدية، في حين أن الكيانات الوثنية كانت تنزع إلى الانفصال والارتباط بالتجارة الأوروبية.

- الدور الاجتماعي للإسلام خلال القرن 17م:

بعد أن تدهورت التجارة الصحراوية خلال القرن السابع عشر نتيجة لتزايد الضغط الأوروبي على السواحل الإفريقية، وبعد أن سقطت آخر الإمبراطوريات الإسلامية بالمنطقة "سنغاي"^[5]، فالملاحظ أن الإسلام قد تغيرت وظيفته السياسية بحيث لم يعد الإطار الفكري لممارسة السلطة؛ ولذلك اتجه الزعماء

المرتبطون بالنخاسة الأوروبية إلى إحياء القيم الوثنية؛ لأنها كانت أكثر انسجاماً مع الأوضاع الجديدة المتمثلة في عسكرة السلطة واستفحال النخاسة. [6]

وأخذ عامة الناس - ممن كانوا حتى هذه الفترة وثنيين أو قريبيين من الوثنية - يتحولون عن التقاليد الدينية التي لم تعد تشكل ملاذاً فكرياً في وجه هيمنة الأنظمة السياسية الإمبراطورية، كما كانت عليه الحال قبل القرن 17م؛ ولأنَّ الإسلام أصبح تعبيراً عن رد الفعل المقاوم، في وجه الأنظمة المستبدّة الجديدة، فقد أخذ عامة السكان يدخلون في الإسلام أفواجا، مستجيبين للدعاة الذين اتجهوا إلى الناس بعد أن فقدوا وظيفتهم السياسية لدى الإستقرارية، وبذلك تحولت طبيعة الدور الاجتماعي للإسلام. [7]

وفي هذا الإطار العام من الفوضى السياسية، ظهرت حركات دينية إصلاحية كان هدفها الأساسي هو إعادة التوازن السياسي والروحي الذي بدأ يفنقه المجتمع، نتيجة اضطهاد الملوك واستعبادهم لرعيّتهم، سيما وأنَّ تجارة الرقيق أدت إلى تفشي ظاهرة العنف في علاقات ممالك إفريقيا الغربية، وعسكرة السلطة فيها.

ثانياً - أهم الحركات الإصلاحية في غرب إفريقيا خلال القرنين 17 و 18م:

2. حركة ناصر الدين (ت. 1674م): انطلقت حركته الإصلاحية من جنوب موريتانيا، وشارك في الحرب التي مات فيها والتي دارت في بلاد شنقيط بين حسان والزوايا، وهي الحرب المعروفة في المصادر التاريخية بـ "شربه". [8] غير أنه قبل هذه الحرب كان قد أعلن ثورة على الفساد في ما وراء نهر السنغال، شملت بالإضافة إلى فوتاتور مناطق أخرى إلى الجنوب مثل جولف (Jolof)، وكايور (Caïor)، و والو (Walo) وفي أعالي نهر السنغال، وأصبحت بذلك نموذجاً يحتذى في إفريقيا جنوب الصحراء الإسلامية بعد إجهاض كل من مالك سي (Malik Sy) في بوندو التي قادها سنة 1690، وألفا كاراموكو (Alfa Karamoko) انطلاقاً من سنة 1725م في حركته الإصلاحية بفوتاجالون. [9] وهذه الحركات الإصلاحية خلال القرنين 17 و 18م ذات المرجعية الإسلامية، كانت تروم إلى تصحيح الأوضاع، وتطبيق الشريعة الإسلامية، لكنها كانت تصطدم بجشع أولئك الذين يخافون على فقدان مراكزهم وامتيازاتهم من الوثنيين، وبعض ضعاف العقيدة من المسلمين. [10]

3. حركة سليمان بال (1720-1776م):

ينتسب إلى بلاد فوتاتور، وقد تأثر بدوره بثورة ناصر الدين. ويرجع سبب هذه الحركة بالدرجة الأولى كما تتحدث عن ذلك المصادر، إلى تجذر واستمرار الأزمة الخائقة التي وصلت إليها إفريقيا الغربية عامة وفوتاتور خاصة بالنظر لموقعها القريب من الساحل الأطلسي، الذي يجعلها عرضة للأطماع الأوروبية، وبسبب كثرة الاقتتال بين القبائل، إما من أجل الوصول إلى السلطة، أو من أجل احتكار سلع تجارية إفريقية معينة في مقدمتها الرقيق.

وتأتي أهمية فوتاتور في هذا الصدد من كونها أقرب ما تكون إلى البحر، وهذا يعني أن من كانت لهم القدرة على الوصول إلى السلطة واحتكار السلع المطلوبة من الأوروبيين على الخصوص، فإنهم سيحققون من وراء ذلك أرباحاً طائلة، ويحكمون في نفس الوقت على منافسيهم بالإفلاس في أعمالهم التجارية، من جراء سيطرة الأولين على الموانئ البحرية، وحرمان الأخيرين من الاستفادة من خدماتها، في وقت أصبحت فيه تجارة القوافل الصحراوية تتراجع أهميتها على المستوى القاري منذ القرن 16م لفائدة النقل البحري، يُضاف إلى ما سبق سياسة السلب والنهب التي مارستها الأرستقراطيات الحاكمة على رعيتهما، بحيث كان حافظاً لاعتناقها الإسلام، وبالإضافة إلى ضغط البيضان (الشناقطة) على المجال الفتوي للاستفادة من مزايا. [11]

كل هذه العوامل أدت إلى تفجير حركة سليمان بال، فهل سينجح في حركته الإصلاحية أم سيتم القضاء عليه كما حصل لحركة ناصر الدين؟

تمكّن سليمان بال من الإعلان عن نفسه قائداً للثورة الإسلامية الإصلاحية بفوتاتور عام 1776م، بعد رجوعه إليها من كايور (Caïor) التي كان يدرس بمدرستها بير (Pir) [12]، ورغم أن الفترة التي تحمّل فيها مسؤولية تصحيح الأوضاع كانت قصيرة على ما يبدو، إذ مات في نفس السنة التي تفجرت فيها الثورة، فإنه حقق بعض الأهداف بعد أن قضى على نظام ملوك الدينياك (Dénianke) الوثنيين بصفة نهائية، وضرب بيد من حديد الذين اتخذوا من الإسلام وسيلة للقهر، كما استطاع أن يُبعد خطر الشناقطة عن بلاده ولو لحين. [13]

وبعد هذه الفاجعة - أي وفاته - التي كادت أن تعصف بمنجزات سليمان بال، تقلّد أمور الحكم بعده الإمام عبد القادر (1729 - 1807م)، لتشهد المنطقة بعد ذلك ميلاد دولة إسلامية قوية في فوتاتور. [14]

حركة الإمام عبد القادر (1729-1807م):

كان رفيقاً لسليمان بال في الدراسة وفي إعداد الثورة بفوتاتور، وكان خير خلف لخير سلف في مواصلة الإصلاح والثورة على الأوضاع الفاسدة. ويمكن القول، أنَّ هذه البلاد لم تشهد حُكماً إسلامياً بمعنى الكلمة إلا في عهده. وأهم المنجزات السياسية والتصحيحية المنسوبة إليه:

- رفع مكانة فوتاتور عالياً من حيث القوة والمناعة؛ بحيث أصبحت الكثير من المناطق المجاورة تدفع الجزية والإتاوات السنوية بما في ذلك البراكنة والترارزة جنوب بلاد شنقيط.
- سعي فرنسيي سانت لويس (Saint Louis) إلى الاتصال به بغية التفاوض معه على ضمان أمن مصالحها التجارية والاستكشافية بالمنطقة. وقد أمكن بالفعل إبرام اتفاقية بين الجانبين في 13 مارس 1785م مقابل أداء ضريبة للإمام عبد القادر. [15]

وقد ترتب عن هذه الإنجازات تحسين في الأداء والسلوك على المستوى الإداري والاقتصادي والعسكري، صارت معه فوتاتور تُملّي شروطها على فرنسا، وتحول دون تحرشات بلاد شنقيط (موريتانيا)، وتعمل بين الفينة والأخرى على توسيع مجالها خصوصاً في حدودها الشرقية على حساب مملكة بوندو (Bundu) مثلاً. ولهذا، تتفق جُل المصادر المحلية على القول بأنّ دولتين قويتين كانتا دائمتي الأطماع في ممالك السنغال الأعلى الغنية اقتصادياً والضعيفة سياسياً وعسكرياً، إحداها تقع إلى الشمال الشرقي من نهر السنغال وهي دولة كارطا (Karta) الوثنية. وثانيهما، فوتاتور من الجهة الغربية. لكن سوء حظ هذه البلاد لم تطل فترة حكم الإمام عبد القادر. وإذا صحَّ ما يُقال من أنَّ الثورة تآكل أبناءها، فإنَّ أعداء الإصلاح من أبناء وطنه خططوا بتحالف مع قوى خارجية للتخلص منه، لأنهم رأوا في صرامة تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية في عهده ما يُحرمهم الكثير من الامتيازات التي اعتادوا الاستفادة منها. [16]

وهكذا ما أن علموا بفشل حملته في معركة بكاير (Kayor) في الجنوب الغربي للبلاد سنة 1796م، حتى شرعوا في اتخاذ الإجراءات الضرورية لعزله بواسطة مجلس الشورى المعروف محلياً بالجاكوردي (Jaggorde)، كما تراجعت فرنسا عن الاتفاقية السابقة ورفضت أداء الضرائب المتفق عليها في اتفاقية 1785م، ونفذت حملات تأديبية في مطلع القرن 19م ضد النظام الإسلامي، فأحرقت القرى وسلبت ونهبت، وقد حاول الإمام عبد القادر استجماع قواته، واسترجاع هيمنته بالتحالف مع قرى مجاورة مثل الخاسو (Khasso) وكاديكا (Gadjaga) إلا أنَّ ذلك لم ينفع أمام كثرة التكتلات الحاقدة عليه من

داخل البلاد وخارجها؛ بدليل أنه استشهد سنة 1807م في معركة تحالف ضده عدة دول وثنية؛ بغية وضع حد للمد الإسلامي، في مقدمتها كارطا وبوندو وكاميرا بتنسيق مع قوى فوتية. خلاصة القول، لقد عادت البلاد إثر اختفاء هذه الشخصية إلى ما كانت عليه من الفوضى واستغلال النفوذ، وشراء منصب الإمامة من مجلس الجاكوردي (Jaggorde) (الشورى). وهو ما أوصل البلاد إلى حالة من الضعف، فتح الباب على مصارعيه للتدخل الفرنسي التدريجي في غرب إفريقيا مع بداية القرن 19م، لتتمكن انطلاقاً من فوتاتور من السيطرة على كامل نهر السنغال وروافده كمرحلة ضرورية لبسط نفوذها على السودان النيجيري مع نهاية القرن.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث نجد أنَّ هذه الدراسة قد توصلت إلى عدد من النتائج والملاحظات الهامة نجملها في النقاط التالية:

- اتسم الوضع السياسي في منطقة إفريقيا الغربية خلال القرنين 17 و 18م بالفوضى، وزاد التدخل الأوروبي من خلال التجارة الأطلسية في تأزيم الوضع، حيث استفحلت ظاهرة التفكك السياسي؛ الشيء الذي ساعد الزعماء والارستقراطيات المحلية المرتبطة بالنخاسة على إحياء القيم الوثنية، والانخراط في بناء نظام سياسي واجتماعي جديد، اتسم بالعنف الاجتماعي وعسكرة السلطة.
- ومجموع هذه المعطيات على سلبيتها، وفرت أرضية خصبة لظهور زعامات روحية، حاولت جمع شتات المسلمين بالمنطقة بهدف إقامة دولة إسلامية قوية، قادرة على تقويم الأوضاع الداخلية المتدهورة ومستعدة لمواجهة الضغط الأوروبي المتنامي والمستفحل.
- الخلاصة التي تتأدى لنا عن هذه الحركات الإصلاحية خلال القرنين 17 و 18م، أنها وسعت دائرة انتشار الإسلام بمنطقة إفريقيا الغربية، وعمقت الاحساس لدى الأهالي بانتمائهم لدار الإسلام.

Reference :

- [1]- Barry, (B). 1998. La SÉNÉGAMBIE du XVe au XIXe siècle : Traite négrière, Islam et conquête coloniale. Paris, éd. L'Harmattan, p. 96.
- [2]- Diop (ch.A.) 1960, L'Afrique noir précoloniale, Paris, P. 9.
- [3]- Barry (B.), 1972, Le Royaume du Waalo. Le Sénégal avant la conquête, Préface de Samir Amin, F. Maspero, Paris p.154-159.
- [4]-Barry, (B). La SÉNÉGAMBIE du XVe au XIXe siècle, p. 79.
- [5]Abdullah Issa, "Islamic Education in West Africa during the 16th Century AD," Al-Bayan Magazine, No. 328, Dhu al-Hijjah 1435 AH / October 2014, p. 3 .
- [6] - La SÉNÉGAMBIE du XVe au XIXe siècle, p .94.
- [7]Abdel-Wadoud Ould Abdallah, 1988 "Islam and Society in West Africa during the 17th and 18th centuries CE", within the Symposium on African Arts, History and Civilizations, Algeria, p. 13.
- [8]Ahmed bin Al-Amin Al-Shanqeeti, 1989, the mediator in the translations of the writers of Chinguetti, Cairo, Al-Khanji Library, fourth edition, p. 493.
- [9]The same source, p. 105.
- [10]Ahmad Al-Azmi, 2000, The Tijani Way in Morocco and Western Sudan during the 19th Century AD, Rabat: Publications of the Ministry of Endowments and Islamic Affairs, Part Two, p. 445.
- [11]Ahmed Al-Azmi, The Tidjani Method in Morocco and Western Sudan, MS, p. 445.
- [12]Bear: This city is located in the Caïor region, south of Saint Louis, and it is a region bordering west by the Atlantic Ocean.
- [13]Al-Azmi, *ibid.*, P. 447.
- [14]Ahmad Al-Shukri, 2001, "The jihad of Hajj Omar Tal in the upper reaches of the Senegal River," within the works of the international symposium marking the 200th anniversary of the birth of Hajj Omar Al-Foti Tal, whose work took place in Dakar, Senegal, Rabat, and publications of the Institute of African Studies, s. 52.
- [15]Ahmed Al-Azmi, The Tidjani Method in Morocco and Western Sudan, MS, p. 448.
- [16]Abdullah Issa, "The Military Strategy of French Colonialism in Senegal", unpublished Master Thesis in History, Hassan II University, Morocco, academic year (2008-2009), p. 44.